مجلة "نتائج الفكر" الصادرة عن معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة
المجلد05 . العدد 02. رقم العدد التسلسلي 08
السنة 2021، ص 22–47
EISSN 2773-2762 / ISSN 2477-992x

البعد الديني لثنائية النور و الظلام في الشعر الجاهلي

The religious dimension of the duality of light and darkness in ignorant poetry

الباحثة نور ياسر ياسين،1، أ.د. ضياء غني العبودي2
1جامعة ذي قار، كلية التربية للعلوم الانسانية ، (العراق)، Noor1995yassir12@gmail.com
2 جامعة ذي قار،كلية التربية للعلوم الانسانية ، (العراق)، thyambc@yahoo.com.

تاريخ الإرسال: 2021/05/13	تاريخ القبول: 2021/06/05	تاريخ النشر 2021/08/11

ملخص البحث

مثّلت الظواهر الطبيعية من النور والظلام وغيرها من المصادر الضوئية ، معبودات لدى مجموعات مختلفة من الناس وخلال فترات زمنية متباينة، فعرفوا النار بوصفها معبوداً والبرق والرعد ، والكواكب من الشمس والقمر والنجوم ، ثم أصبحت هذه الظواهر جزءاً من الطقوس ،التي يؤديها الإنسان لنوازع دينية في العبادات، التي شكّلت مرحلة متقدمة من الفكر الديني للإنسان ، في الديانات الإلهية من النصرانية واليهودية وصولا إلى التوحيد ، وقد ضمن الشعراء الجاهليون بعض هذه الطقوس في أشعارهم بشكل رئيس مرة بوصفها محورا للصورة الشعرية ، ومرة اخرى بشكل ثانوي مكملا للمشهد الشعري، متداخله مع شتى الأغراض الشعرية .فكان لثنائية النور والظلام في الشعر الجاهلي دلالات دينية مختلفة كالحياة والموت والبراءة والخطيئة والخير و الشر.

كلمات مفتاحية : النور والظلام ، الحياة والموت ، الخير والشر ، البراءة والخطيئة .

Abstract: Natural phenomenas like the light and the darkness and other light sources represented deities by different groups of people during different periods of time, so they defined fire as an idol, lightning and thunder, and the planets and the sun, moon and stars, then these phenomenas became part of the rituals that man performs for religious motives in worship , Which constituted an advanced stage of human religious thought, in the abrahamic religions from Christianity and Judaism to monotheism, the pre-Islamic poets dealt with some of these rituals in their poetry mainly once as the focus of the poetic image, and again secondarily complementing the poetic scene, intertwined with various poetic purposes . The duality of light and darkness in pre-Islamic poetry had different religious connotations, such as life, death, innocence, sin, good and evil

Key words: Light and Darkness, Life and Death, Good and Evil, Innocence and Sin

المؤلّف المرْسِل: أ.د. ضياء غني العبودي ، thyambc@yahoo.com

المقدمة :

من أهم المفاهيم التي ارتبطت في ذهن الإنسان العربي بصور ذات مرجعيات دينية هي النور والظلام، فجاء شعرهم حافلا بألفاظ تشير إليها رمزا بصفة من صفاتها مرة وتصرح بتا أحيانا أخرى، التي أظهرت نبوغهم اللغوي و قدرتهم البيانية العالية والتي أظهرتها قصائدهم، فالتعبير عن الشيء بأنه مضيء أو منير، يختلف عن التعبير عنه بأنه النور أو الضوء ، والعربي أدرك هذا الاختلاف بفطنته حينما تعامل مع النور في مشاهد شعرية عبر فيها عن الممدوح بالمصدر بدلا من اشتقاقاته ، إذ إن في ذلك دلالة على الكمال وإنه أصبح مصدر النور نفسه ولا يحتاج إلى واسطة .كما إن تشبيه المرأة بالزهراء يحمل أبعاداً دينية تربطها بكوكب الزهرة المعبود ،وهي تسمية تحمل بعد جمالي أيضا إذ إن هذه النجمة كانت من أجمل النجوم التي اتفقت عليها أغلب الشعوب فلا الشمس تستطيع أن تحجب جمالها صباحا ولا القمر يستطيع أن يخفت لمعانها ليلا.

الحياة والموت :

إن تعاقب الليل والنهار أي النور والظلام على مكان معين ، يمنح الأنسان مدى لتأمل الخراب والازدهار بوصفهما صورتان للحياة والموت فيرى أثرهما في الحيوانات والنباتات وحتى الإنسان ما يجعله مدركا بشكل أكبر، التغيير الذي تحدثه الطبيعة وظواهرها في المكان والاثر الذي يترتب عليه في نفوس ساكنيه ،ومن ثم تمنحه ((قوة اكبر للشك و الارتياب ، لأنها تسمح له بوعي تأولي في المعنى ،و استكشاف للتغيرات الكبيرة الحاصلة في ذلك المعنى و فك رموزه وتعبيراته، عندها يتمكن من إقامة علاقة جديدة ، بين الظاهر(التعبير و الرمز) الذي تجلى فيها على أنه معنى ، و بين

الباطن الذي هو المعنى المتستر وراء ذلك الرمز))(1) . ومن ثم اكتشاف تصورات فكرية جديدة ، تعينه على فهم المجهول المحيط به من كل جانب . والشعر الجاهلي يتضمن الكثير من هذه المشاهد التأملية التي ترافق النور والظلام .كما في قول حنظلة الطائي* (2):

وَمَهما يَكُن مِن رَيبِ دَهرٍ فَإِنَّني أَرى قَمَرَ اللَيلِ المُعَذَّب كَالفَتى

يُهِلُّ صَغيراً ثُمَّ يَعظُمُ ضَوءُهُ   وَصورَتُهُ حَتّى إِذا ما هُوَ اِستَوى

وَقَرَّبَ يَخبو ضَوءُهُ وَشَعاعُهُ   وَيَمصَحُ حَتّى يَستَسِرَّ فَما يُرى

كَذَلِكَ زَيدُ الأَمرِ ثُمَّ اِنتِقاصُهُ   وَتَكرارُهُ في إِثرِهِ بَعدَ ما مَضى

ينقل الشاعر رؤيته عن الحياة والموت عبر تقصيه مشهدا سماويا، تفاعل فيه النور والظلام ،فأنتج صورة شعورية مواسيه لما يشعر به الشاعر من الألم والحزن ، إذ إنه يعترف بعدم ديمومة الحياة ،وإنها زائلة لا شك، وإن طال الزمان مثل ما تتبدل وتتغير كل معالم الكون حوله إذ لا شيء ثابت ، فكما ينمو الإنسان ليهرم ويشيخ ثم يذوب في العدم ، كذلك الشاعر وجد في الطبيعة ما يماثله في حالة النمو والحركة والذوبان حد الاختفاء ،من خلال تأمله لصورة القمر المنير الذي يولد من رحم الظلمات صغيرا ،كما يولد الأنسان من رحم مظلم، ثم ينمو ويكبر حتى تتعلق العيون والقلوب به ، وتتأمل ظهوره وتأنس بنوره ، ثم لا يندهش الإنسان منه إن هو هزل و تضاءلت صورته ، وتلاشى بريقه حتى جن عليه الأفق فما عادت الأبصار تصل إليه ، ومثله الإنسان في خفوته وتلاشيه ومفارقته محيطه فكلا فقدهما يحدث في النفس اكتئابا، إذ ((أن الشعور بالكآبة البصرية

يحدث دائما نتيجة لأن المحيط المضيء افتقد الجودة المنتظرة المرغوب فيها كافتقاد الدلالات أو افتقاد نقطة بؤرية ملائمة والتي يزيد من حدتها وعي الرائي بالعديد من البدائل المرضية))(3).ومن الغريب أن ينعت الشاعر القمر بالمعذب ، فلا نعلم لماذا رأى في حالة القمر وتحوله من حالٍ إلى حال عذابا!

لا يتفق الناس على رؤية واحدة تجاه أمر من الأمور إذ تختلف آراؤهم باختلاف خبراتهم الحياتية والثقافات المجتمعية والدينية ، فكيف بهم وهم شعراء وقد تفرد كل واحد منهم برؤيته الخاصة كما في قول أمرؤ القيس مصورا الحياة والموت من منظوره الخاص عبر قوله (4):

فَصَبّحَه عِنْدَ الشُّرُوقِ غُدَيّةً كلابُ بن مر أو كلاب بن سنبس

مغرثة زرقا كأن عيونها من الذمر والايحاء نوارُ عضرس

فأدبر يكسوها الرغام كأنها على الصَّمْد وَالآكامِ جِذوَةُ مُقبِسِ

وايقنَ إن لا قينه أن يومه بذِي الرَّمثِ إنْ ماوَتْنهُ يوْمُ أنفُسِ

فَأدرَكنَهُ يأخُذنَ بالسّاقِ وَالنَّسَا كما شبرقَ الولدانُ ثوبَ المقدّس

وَغوّرْنَ في ظلّ الغَضَا وَترَكْنَه كقرم الهجانِ الفادر المتشمس

يرصد الشاعر عبر لوحة الصيد هذه صراع الحياة والموت بين الحمار الوحشي وكلاب الصيد ، فهو مثل رسام حرص على بثّ الحياة في كل تفاصيل صورته من خلال العامل اللوني الذي استند عليه ،في تثبيت أركان الصورة النفسية، فالنور الإشراقي للصبح الذي جعله الشاعر وقتا للصيد ، قد زاد من حدة الكلاب وقسوتها ؛ لأنه يوحي للمتلقي أنّها لشدة ما حلّ بها من الجوع لم تنم ،فكان

الصبح انفجارا لما تبقى فيها من قواها النائمة التي أيقضها خطر الموت فأصبحت صورتها أشد وحشية وضراوة وشر ، فقد أسقط عليها الشاعر وصفا خاصا من خلال العامل اللوني الذي جعله صفة ثابته فيها بقوله (زرقا) ،والعرب تشبه بالزراق وتصف به في مواطن الخوف وكأنه لونا لكل ما له قدرة على سلب الحياة ، وهو عندهم ((لون مشؤوم مكروه ينفر منه ، وذلك للربط بينه وبين عيون العدو ،... وقد وصف العرب كل عدو بالزرقة فقالوا : عدو أزرق ، نسبة إلى زرقة عين الروم ، وتشبيها بهم ، و وصفت عين الغول ، والجان الخبيث بالزرقة وذلك من هذا الباب ، وهو الدلالة على المكر والعداوة))[5].والشاعر بذلك ضمن للكلاب وجودها بوصفها صورة للموت ، الذي يحيط بالحمار الوحشي ويوشك أن يقع عليه ، ولا يكتفي بالزرقة كلون عام بل يزيد الحمرة في العين التي لا تخلو أيضا من الدلالة على الشر والغضب ، كما أنه يمهد لصورته التالية التي رصد من خلالها الكلاب وقد ردت خالية الوفاق ، مما زاد من غضبها فأصبحت كأنها تشتعل بنارين نار الجوع ونار الهزيمة والفشل ، وقد مثل صورة الكلاب وهي تحاول القبض على تلك الحمر الوحشية بصورة ذات صبغة دينية ، إذ جعلها مقابل صورة الراهب الذي يتعلق الأولاد بثيابه فتتمزق لشدة تعلقهم به ، لكن الدلالة هنا قد جاءت معكوسة إذ إنّ تعلق الكلاب بالحمر الوحشية كان تعلق صورة الموت بصورة الحياة ، في حين كان تعلق الأولاد بثياب الراهب تعلقا مختلفا إذ إنّ الراهب يمثل صورة للخير؛ لأنه يظهر لهم بصفة دينية، الدين الذي هو أمان وطمأنينة لمعتنقيه ، لينتهي هذا الصراع بانتصار الحياة على الموت ممّا يعزز رؤية الشاعر وتفضيله للخير على الشر ، فقد تمكّن الحمار الوحشي من البقاء على قيد الحياة فترك هذه الكلاب وقد أنهكها التعب والجوع ، وفر منها نشيطا مرحا.

ومنه قول قس بن ساعدة [6]:

مَنَعَ البَقاءَ تَقَلُّبُ الشَمسِ وَطُلوعُها مِن حَيثُ لا تُمسي

وَطُلوعُها حَمراءَ صافِيَةً وَغُروبُها صَفراءُ كَالوَرسِ

تَجري عَلى كَبِدِ السَماءِ كَما يَجري حِمامُ المَوتِ في النَفسِ

تظهر حكمة الشاعر بشكل واضح في النص بصفته خطيبا واعظا ، فيعكس من خلال هذه الأبيات رؤيته للحياة والموت مستعينا بالطبيعة وما توفره من حركة وسكون بتتابعها و رتابتها فتكشف للإنسان عن فاعلية الزمن وقدرته على طي الكائنات والموجودات كما تطوى صفحات الكتب ، إذ إنّ لكل شيء عمراً محدداً لا يستطيع خرق حدوده وتجاوز مدته ، فالشاعر يرى أن في تقلب الشمس في الطلوع والشروق ، حكمة لابد أن يتنبه لها الإنسان إذ إن لا شيء يبقى على حاله فكل ما في الكون يمضي إلى سبيله ،فالتغيير سبيل كل شيء، والفناء قدره الذي لا يستطيع الفرار منه ، كما أن العامل اللوني قد أدى دورا بارزا في تدعيم رؤية الشاعر من خلال ضوء الشمس والهيئات التي تتخذها حتى تغيب في الظلام ، وكأنها تمثل بداية العمر حينما تشرق صباحا بما تحمله من الصفاء والجمال والبهجة الذي يذكر الإنسان بطفولته ، ثم شبابه وقوة صباه حينما يشتد ضوئها وبأسها وتصبح لاهبة تصهر حرارتها كل ما تقع عليه مثل فارس مهاب ، ثم ما تلبث أن تصاب بالفتور والخمول فلا تعود لها من القوة والشدة والحرارة ما كان لها في منتصف النهار وكأنها قد شاخت وتملكها الضعف والوهن والمرض ، كما يتملك الإنسان في شيخوخته ،وقد دلّ عليه الشاعر بقوله (كالورس) إذ إنّ في التشبيه بصفرة هذا النبات ما يوحي بالمرض وتغيير الحال وتقلبه ، وهي صورة قد ذكرت الشاعر بصورة الإنسان حينما يعاني ألم الموت وكيف يتغير لونه ويصفر بعد احمرار .

البراءة والخطيئة :

يميل الإنسان دائما إلى التنظيم وينفر من العشوائية، فقد عمل على تقنين تصرفاته وأفعاله منذ بداية وجوده على قوانين وضعية، كي يسهل عليه التعايش مع من حوله، حتى مع عدم وجود دين ترتبط به الجماعة الانسانية ، هناك دائما أعراف وتقاليد تحتكم إليها الجماعات ،وقد عد الخروج عنها خطيئة يستنكر ارتكابها ويعاقب نفسه عليها ،و إنْ لم يعاقبه أحد فضمير الإنسان قاضيه الأول الذي لا يستطيع الهرب منه ، وكما هو في كل تفاصيل حياته يلجأ إلى حضن الطبيعة ، فتحاكمه وتدافع عنه وتواسيه وتسجنه أحيانا ، حيث تكون مرآته التي تعكس براءته وطهره مثل ما تعكس ذنوبه وخبثه وقد ترجم الشعراء تلك الانطباعات والمشاعر في شتى أغراضهم الشعرية .وفي السياق نفسه قول أميه بن أبي الصلت (7):

من الحقد نيران العداوة بيننا   لئن قال ربي للملائكة اسجدوا

لآدم لما أكمل الله خلقه   فخروا له طوعا سجودا وركد

فقال عدو الله للكبر والشقا   أطين على نار السموم يسود

فأخرجه العصيان من خير منزل   فذاك الذي في سالف الدهر يحقد

علينا ولا يألو خبالا وحيلة   ليوردنا منها الذي يتورد

جحيما تلظى لا تفتر ساعة   ولا الحر منها آخر الدهريبرد

فما لك في الشيطان والناس أسوة   إذا ما صليت النار بل أنت أبعد

هو القائد الداعي إلى النار جاهدا ليوردنا منها الّذي يتورد

ومالك من عذر بطاعة فاسق ولا بلظى نار عملت لها يد

تسيطر النار على كل مفاصل القصيدة بدلالات مختلفة بصفتها مرة وبعينها وذاتها مرات أخرى ، وقد استعان بتا الشاعر لرسم قصة آدم و السجود الذي غير مسار حياته وحياتنا تبعا لها فيبثها للمتلقي بهدف الموعظة و التذكير ليختار الإنسان أي الطريقين يسلك وأيها فيه صلاحه ، وكيف يكون لبعض الخطايا أثراً مدمراً على حياتنا لا ينتفي حتى مع الرجوع عنها والتوبة منها ، فأخذ الشاعر من النار صفتها المدمرة وقدرتها على الإحراق للتعبير عن مشاعر العداوة ، التي تنشأ بين الأفراد وإنما أختار النار للتعبير عن هذا الشعور لما بينه وبينها من صفات مشتركه فكلاهما مدمر و عنيف ، وفي الصورة التالية لها حضرت النار بصورتها المادية الساحرة بوصفها مادة عظيمة لا تقارن بغيرها ومن ثم المخلوق منها ، متعالٍ على غيرها لشدة تأثيرها على ما تمسه من الأشياء ، فلا تأثير للطين على محيطه أو ما يقع عليه مثل ما هي النار ، ومن ثم وجد إبليس نفسه شخصا أعظم من آدم لأن النار مادته ومنها خلق ، ثم ينسب الشاعر إلى إبليس صفة الحقد ولا يخفى ما له من علاقة مع الحرارة بصفتها شعورا حارقا لصاحبه وللآخرين كما هي مشاعر العداوة التي تحدث عنها الشاعر في بداية قصته ، فإبليس الذي افتتح باب الخطايا بخطيئته التي لا تغتفر ، قد فتح معها باب العقاب أيضا ولا شيء مثل النار قادر على أثارة الرعب في نفس الإنسان إن كان عقابا ، فقد أختبر كل إنسان قدرة النار على الحرق وآليته من خلال إنضاج طعامهم ، فالنار إن كانت تلتهم كائن تدب فيه الحياة أو حتى ميت جثة فقط ، تشعل فيه الألم كأنها تشعل الشموع لليلة ظلماء ، فحتى تبلغ النار قلب الإنسان وتحكم قبضة الموت حوله ، يكون قد ذاق كل ألوان العذاب حتى يصبح الموت معها راحة أبدية و أمنية يتمناها الإنسان ، هذه القسوة والوحشية التي عليها عملية الحرق مما عايشه الإنسان من احتراق حيواناته وأنضاج طعامه حتى الحوادث التي يحترق فيها

الإنسان نفسه ، من هنا أمتلك صورة للعذاب في ذهنه الذي يكون عقابا للخطيئة ، إذا كانت هذه النار بصورتها المعذبة هي نار الإنسان فكيف بها وهي نار الآلهة فلا بد من إضفاء شيء من الجبروت والعنف والتدمير أكثر والأزلية التي تناسبها كي تكون عقاباً إلهياً ، فلا تفتر ولا تبرد بل هي في حرارة دائمة ومستمرة لا نهاية لها ،وفي نهاية هذه القصة يؤكد الشاعر على الجانب الوعظي إذ لا عذر للإنسان حين أختار طريق الشيطان طريقا ومسلكا ، بعد أن تبين له ما كان من ظلاله وما يسعى إليه من هلاك الناس وأبعادهم عن الطريق الصحيح الذي فيه سعادتهم .

ومنه أيضا قول حاتم الطائي [8]:

لَمَ يُنسِنِي أَطلالَ ماوِيَّةٍ ناسي وَلا أَكثَرُ الماضي الَّذي مِثلُهُ يُنسي

إِذا غَرَبَت شَمسُ النَهارِ وَرَدتُه كَما يَرِدُ الظَمآنُ آبِيَةَ الخِمسِ

يرسم بعضهم لنفسه دوائراً أخلاقية خاصة يدور فيها وحده ، وربما شكلت نسقا للآخرين فيما بعد ، وهذا ما فعله حاتم الطائي من خلال دائرة الكرم التي أحاط نفسه بها ، وعد الخروج عنها خطيئة يعاقب نفسه على ارتكابها ، بل يعيذها بكل التعاويذ والتمائم عن الإتيان بعكسه أو حتى ما هو دونه، فيبدأ الشاعر حديثه بالنفي القاطع عن نسيان قومه ، وكأنه يعيذ نفسه بهذا النفي من أي تغيير قد يطرأ عليها ،نتيجة لحوادث الدهر ونوائبه التي تتوالى على الإنسان وكل واحدة منها حقها أن تنسيه أهله وأصحابه ، وأخرها هو فراقه لزوجته الذي آلمه لولا ما كان من سببه، وهو الصدام الذي حدث بينهما لاختلاف مبادئهما التي ينطلقان منها في التعامل مع معطيات الحياة ، فلا تؤمن زوجته بجدوى دائرة الكرم هذه وأبت أن تنساق معه إليها ممّا جعل طريقيهما يتقاطعان ، ومع ذلك لم يتمكّن الشاعر من تجاوز عاطفته تجاهها ، فهو بين نارين نار الحب ونار المبدأ الذي

خشيت زوجته أن يحرقهما ، لكن طموح الطائي إلى المجد جعله يخمد نار الحب ، بجعله حطباً لنار المبدأ الكرمي كي تزداد سعيرا ولهيبا ، لكنه قد سار على عادة الشعراء على التعامل مع الطلل فقد جعل الشاعر من حلول الظلام موعدا لورود الطلل كما يرد الماء من أشتد به العطش ،بلهفة وشغف كبير وكأنه سيلتقي زوجته ذاتها .

وفي السياق ذاته قول المهلهل بن ربيعة (9) :

أَلَيلَتَنا بِذي حُسُمٍ أَنيري إِذا أَنتِ اِنقَضَيتِ فَلا تَحوري

فَإِن يَكُ بِالذَنائِبِ طالَ لَيلي فَقَد أَبكي مِنَ اللَيلِ القَصيرِ

وَأَنقَذَني بَياضُ الصُبحِ مِنها لَقَد أُنقِذتُ مِنشَرٍّ كَبيرِ

كَأَنَّ كَواكِبَ الجَوزاءِ عُودٌ مُعَطَّفَةٌ عَلىرَبعٍ كَسيرِ

....

كَأَنَّ الفَرقَدَينِ يَدا بَغيضٍ أَلَحَّ عَلى إِفاضَتِهِ قَميري

إذا كان حاتم الطائي قد رسم لنفسة دائرة أخلاقية خاصة عنوانها الكرم ، فإن المهلهل بن ربيعة لم يختلف عنه في رسم حدوده الخاصة للخطيئة والبراءة عبر رؤيته عن الثأر التي عكستها قصة حربه في الثأر لأخيه ، إلا أن دائرة المهلهل لم تنل استحسان المجتمع العربي كما هو الحال مع الطائي فلم تشكل نسقا فيما بعد ،ليس للمبالغة فقط لأن كلا الشاعرين كان مبالغا في تبني مبدأه والدفاع عنه ، لكن مبالغة الطائي تورث الحياة فيمن حوله ، في حين كانت مبالغة المهلهل تورث الموت ولا شيء غيره ،ومن هنا كانت هذه الدائرة التي رسمها المهلهل تضيق وتضيق كل ما حاول الركض فيها

حتى خنقته في النهاية ، والشاعر هنا يطلب من الليلة أن تنير بوصف النور دال على البراءة والطهر فقد جلى الشاعر عن هذه الليلة ظلامها الذي صبغتها به خطيئة قتل أخيه ،فأصبح هذا الليل بكاءً طويلاً يلف الشاعر من كل جانب ، بعد أن كان موعدا للسمر والسكر الذي لشدة تعلقه به يجده قصيرا لا يتسع كل مغامراته وتسلياته ، والآن صار يدعو على الليالي أن لا تعود لو أنقضت ، لطولها الذي لا يستطيع الهرب منه ،وكأنها يد كبيرة قد اطبقت على صدره حتى بات لا قدرة له على الحراك ، فلا منقذ له إلا الصبح وبياضه الذي يجلو كل ظلمة بشرها و بألمها وخطيئتها وذنبها ، فكل صباح هو بمثابة براءة للنفس من كل ما أفاضت به الظلمات عليها ظلمة الليل وظلمة الضمير الإنساني ، فيرى الشاعر في النور منقذه من قبضة هذا الليل .

ولا يغادر الشاعر الظلام من خلال لوحة النعي هذه لكن بدلالة مختلفة فيرى في كواكب الجوزاء نوق حديثات النتاج عطفت على ربع مكسور، وهنا إشارة إلى كليب وعلو منزلته وشأنه ، فهو الطاعم المحتضن لقومه إذا مسهم ليل شديد البرد طويل ، فالجوزاء يكون طلوعها أيام البرد وليلها طويل ، وحري بالقوم أن يفتقدوا في مثل هذه الليالي من اعتادوا اللجوء إليه والاستجارة.به

الطقوس الدينية :

مثلت الظواهر الطبيعية من النور والظلام وغيرها من المصادر الضوئية ، معبودات لدى مجموعات مختلفة من الناس وخلال فترات زمنية متباينة، فعرفوا النار بوصفها معبوداً والبرق والرعد ، والكواكب من الشمس والقمر والنجوم ، ثم أصبحت هذه الظواهر جزءاً من الطقوس ،التي يؤديها الإنسان لنوازع دينية في العبادات، التي شكلت مرحلة متقدمة من الفكر الديني للإنسان ، في الديانات الإلهية من النصرانية واليهودية وصولا إلى التوحيد ، وقد تناول الشعراء بعض هذه الطقوس في

أشعارهم بشكل رئيس مرة بوصفها محورا للصورة الشعرية ، ومرة أخرى بشكل ثانوي مكملا للمشهد الشعري، متداخله مع شتى الأغراض الشعرية ، ومنه قول امرؤ القيس (10):

نَظَرتُ إِلَيها وَالنُجومُ كَأَنَّها مَصابيحُ رُهبانٍ تَشُبُّ لِقَفّالِ

يزحم المشهد بأنوار مختلفة المصادر ومتباينة في الشدة والتأثير ، أدت جميعها أدوارا ثانوية في حضرة الإشراق الأساس، وهو الوجود الأنثوي لحبيبته ، الذي من أجله جاء الشاعر بهذه الصور ،كي تبرز جماله وجلالة حضوره ، وكأن النظر إليها طقس عبادي ، يحتاج إلى ظروف معينة لا يبلغ الناظر منيته لولاها، فيصف الشاعر الأجواء الملازمة لهذا النظر ، وصفا يتداخل معه النور السماوي والنور الأرضي في صورة واحدة وظف فيها الطقوس الدينية النصرانية في إرساء دعائم المشهد الغزلي ، فكانت النجوم قد بدت في أبهى صورها وأكملها نوراً وتلألأ، وقد ربط الشاعر هذا الوضوح و البروز لهيأة الجسم النجمي، بما يشعله الرهبان من المصابيح التي أتسم إشعالها بشيء من القدسية كونها تشب لغرض العبادة ، وقد ماثل الشاعر بين طقسين عباديين على مستويين مختلفين ، الأول كان نظره إلى حبيبته و وصله لها الذي تضيئه النجوم بنورها ، والثاني كان تعبد هؤلاء الرهبان الذي تعينهم عليه المصابيح المنيرة ، كما أن قوله (قفال) يشير إلى التكرار و الاستمرارية في الحدث على كلا المستويين في المستوى الأول يوحي بتكرار هذا اللقاء لأن هذه النجوم لن تتخلى عن هيئتها بل ترجع إليها ليلة بعد ليلة فهي قافلة ، وعلى المستوى الثاني يوحي بتكرار إشعال المصابيح واستمرارية الطقس العبادي ، الذي يمارسه الرهبان .كما أن اتخاذ الشاعر لهذه الطقوس صوراً تشبيهية يدل على رسوخها واستقرارها في المتخيل الجمعي للعرب .

وفي السياق نفسه قول أحد الهذليين يصف ضباعا (11):

سُودٍ سَحاليلٍ كأ ـنّ جُلودَهنّ ثِيابُ راهبْ

عبّر الشاعر باللون الأسود لثياب الرهبان من خلال صورته الوصفية ، التي رصد فيها هيأة مجموعة من الضباع ، فأسقط على جلودهن صفة السواد ، وقد يخيل للمتلقي أنه وصفا ذميما لكن الوصف الذي تلاه عبر قوله (سحاليل) يكشف عن أجسام عامرة عظيمة البطون قوية البنية، ما يعني أن سواد الجلود الذي أستعاره الشاعر من سواد ثياب الرهبان إنما كان تعبيرا عن القوة والعظمة ،وتأثيرها في جماعتها كما يؤثر الراهب في جماعته .

وقد تضمنت بعض الصور الشعرية ما يقسم به الجاهلي ممّا يقدسه ويعظمه فترى تلك الصور تتداخل مع ثنائية النور والظلام ومنه قولهم (12):

حلفت بالملح والرماد وبال نار وبالله نسلم الحلقة

حتى يظلّ الجواد منعفرا ويخضب النبل غرة الدرقه

وقول الاخر:

حلفت لهم بالملح والجمع شهد وبالنار واللات التي أعظم

قدست العرب الملح والنار حتى كانت تضعهما موضع الآلهة العظيمة التي تقسم بها ، وقد قرن الشاعران في صورتيهما بين (الملح ، الرماد ، النار، واللات، الله)في موضع واحد دلالة على عظمة الشيء الذي يحلفون عليه ، كما أنها جميعا اشتركت في صورة النور، الذي حتى لو لم يكن ضمن هيأتها ، فقد كان مصداقا للوجود الإلهي ، فقد شكل الملح محورا جماليا في الكثير من صور الشعراء

المختلفة نظرا لصفاء لونه ونقاء بياضه كونه المادة البيضاء الموجودة بوفرة في البيئة العربية ، كما إن خصائص هذه المادة وقدرتها على حفظ الأطعمة من العفن ، جعلها محط تقدير ودهشه في المتخيل العربي ، كأنها مادة سحرية ولعل هذا ما جعله يقدسها ،والرماد صورة لنهاية الوجود الضوئي للنار لكن من الغرابة أن يضعه العربي موضع القسم إذ كيف يقدس نار خامدة فما الرماد إلا نار خمدت وانقضى ضوئها ، فمن المعروف أن العرب لا تحبذ النار الخامدة بل تستحسن النار الدائمة الاشتعال، كناية عن الكرم .((أن القسم بالرماد والتحالف عليه ،قد يفسر بكاء الشعراء على الأثافي السود التي تركها القوم الراحلون ، لأن فيها قداسة الجاهلي))[13]. أما القسم بالنار فلا غرابة فيه إذ إنّها كانت معبودة لدى العرب ،وقد أختتم الشاعران صورة هذه الآلهة بذكر(الله، اللات) وكلاهما يشتركان مع باقي معبوداتهما بالوجود النوري ، إذ إنّهم عدوا النور مصداقا لوجود الله والأصنام التي قدسوها .

ولا يكون الدعاء بالخير دائما ولا كله تهاليل وتسبيح كما في قولهم [14]:

وجمة قوم قد أتوك ولم تكن   لتوقد ناراً خلفها للتندم

تعددت أساليب العرب للتعامل مع الشرور وتنوعت ، فمنها ما تواجهه بالسلاح وقوة الساعد ومنها ما توجهه بالحكمة و الحنكة ، ومنها ما توجهه بالغيبيات والتعاويذ التي تعود أغلبها إلى معبودات معينة ، وتعد النار واحدة من معبوداتهم وعاملا أساسيا في طقوس العبادات الأخرى ،و قد حمل اشعال النار هنا جانبا نفسيا واجتماعيا ، إذ إن العرب كانت تعطي لكل نار دلالة خاصة مشتقة من الحالة النفسية والاجتماعية لشاعلها ،ومن تلك النيران ما يسمونها ((نار الطرد، وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص ، أوقدوا خلفه نارا ودعوا عليه ، ويقولون في الدعاء : أبعده الله

وأسحقه ! وأوقد ناراً إثره))[15].لكن الشاعر قد وظف نار الطرد هنا وظيفة عكسية ، ليدل من خلالها على حسن ضيافته وكرمه ، ومودته للقوم الذين نزلوا عنده يطلبون دية ، فلم يشعل خلفهم النار لأنه غير نادم على استضافتهم ولا على اعطاهم المال ، وفي ذلك اشهار خفي لرغبته في استمرار علاقته معهم وتكرار لقياهم .

الخير والشر :

إنّ حياة الإنسان داخل مجتمعات تتكون من طبقات مختلفة ومتباينة من حيث الغنى والفقر والسلطة والضعف والقوة ، وعدم ثبات موارد الغذاء وتذبذبها ، جعله يختبر مشاعر الظلم والعدل والخير والشر ،حتى مع عدم وجود دين ترجع إليه هذه الجماعات ،فهناك دائما الأعراف والتقاليد التي تنظم التعامل بين الأفراد في مجتمع ما ، والعرب وفقا لحياتهم التي تسيطر عليها الغزوات ولغة السيف والسلب والإغارة التي تصل حد تشمل معها حتى الإنسان نفسه فيسلب كما تسلب الإبل والخيل وما سواها فيعد غنيمة يتقاسمها الغانمون فيما بينهم، كل هذا الذي يعايشه العربي لا شك أنه جعل للشر والخير وجودا راسخا في النفوس والأذهان ، فيقول الأعشى [16]:

حَكَّمتُموني فَقَضى بَينَكُم أَبلَجُ مِثلُ القَمَرِ الباهِرِ

لا يَأخُذُ الرَشوَةَ في حُكمِهِ وَلا يُبالي غَبَنَ الخاسِرِ

يرى الإنسان في الحق وضوحا وسطوعا لا يستطيع الشر حجبه أو طمس نوره وإن تحير الباحث عنه في إيجاده ، فهو ظاهر لا محالة ولا شيء في نظر الإنسان أقدر على الدلالة على الحق من اللون الأبيض الذي يحمل معاني ودلالات متنوعة تصب كلها في وادي الخير،والشاعر لم يبتعد عن هذه

الدائرة المعنوية للون الأبيض في حديثه عن عدالة ممدوحه في الحكم بين الناس ،فأخذ من معنى النزاهة والعدل وانحيازه للخير ليسقطه على وجه هذا الحكم ، فهو مثل القمر الذي تسكن النفوس وتطمئن حينما تنظر إليه أنها ستأخذ حقها ولا تظلم عنده ، كما أنه يمتلك سحره الخاص الذي يجعل له وقعاً وأثراً في نفوس الناس ، ((ولما كانت مسؤولية القضاء خطيرة وجسيمة ، فقد أولى العرب قضاتهم المكانة المرموقة و أنيطت بهم المهمات الجسيمة المسؤوليات العظيمة ، لذا كان اختيارهم لا يتم إلا وفقا لصفات تتناسب و طبيعة مسؤولياتهم ، كالعدل ، والشرف، والفهم ،والحكمة ، والسن ، و التجربة))[17]. وشخص بهذه الصفات لن يحكم إلا بالعدل ولا لن يعرف الشر إلى نفسه طريقا ، ولا تأخذه العاطفة للانحياز إلى الخاسر لعلاقة شخصية أو صلة رحم ، فقريبه الوحيد هو الحق يميل معه حيثما مال .

لكن الخير و الشر مفاهيم غير ثابتة فهي لا تنفك تتغير بتقلب أحوال الإنسان من الفرح والحزن والخوف والطمأنينة ، ممّا يجعل نظرته للخير والشر متقلبة، فالشيء الذي يمثل مصداقا للشر اليوم ربما يكون مصداقا للخير غدا فالإنسان أيضا لا ينفك يتغير، فيقول رجل من تميم وهو أبن النطف * [18] :

أَبِي النطف المباري الشمس إني عريق فِي السماحة والمعالي

عد الإنسان الشمس قدوة ومصدرا للخير ومثال يتحذى به في كرمها الذي تفيض به على الإنسان كل يوم ، فهو إزلي بلا انقطاع ولا تغيير من نورها و حرارتها اللذين يعينان الإنسان على أدارة شؤون معيشته فمن دونهما لا تستقيم له حياة ، والنص هنا ينقل لنا محاولة (النطف) مباراة الشمس في الكرم في كرمها وخيرها الذي تمطر به الأرض كل يوم ، الذي وهب للناس ممّا وقع

تحت يديه من الأموال منذ طلوع الشمس حتى مغيبها ، فصار مثلها في الندى و الخير ، ولعله لم يقصد بالشمس الجرم السماوي المضيء فقط بل أراد بها الإله المعبود آلهة النور و الخير التي وقفت مع الإنسان في صراعه الدائم مع الشر من خلال صراعها هي مع آلهة الظلام .

وقد أخذ اللون الأسود على عاتقه المهمة الإعلامية عن الشر، لذا فقد أرتبط وجوده بالخوف والمشاعر السلبية والأمور السيئة، وفي ذلك يقول النابغة الذبياني (19) :

زَعَمَ البَوارِحُ أنّ رِحْلَتَنا غَداً و بذاكَ خبرنا من الغداف الأسود

يرصد الشاعر عبر هذا البيت رؤية خاصة للخير والشر تعلقت بالجهات اليمين والشمال ، فقد حبذ الإنسان العربي يمين كل شيء ومال إليه ، ولعل أكثر الصور التي تبرز هذا هو انطباعه عن حركة الطيور والحيوانات حوله ويشير إليه بالبارح والسانح ((والبارح : ما مر من الطير و الوحش من يمينك إلى يسارك ، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف ، والسانح : ما مر بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك والعرب تتيمن به لأنه أمكن للرمي و الصيد))(20). والبيت يحتوي على ألفاظ مختلفة ساندت البارح في الدلالة على الشر ، ابتدأ من قوله زعم الذي يوحي بالشك وعدم الاطمئنان وكثرة الأقاويل على غير هدى ،انتهاء بحديثه عن الغراب الضخم الأسود الذي أنفرد بهالة من التشاؤم يأتي بها حيث ما حل ، وقد أختلف في ما يجلب هذا الشعور ،هل هو متعلق في لونه الأسود فقط ؟أما أنهم اشتقوا التشاؤم منه من طبيعة حياته وصوته المنفر لأن هناك من الغربان ما هو أبيض اللون ، وقيل أنهم تطيروا منه ((لسواده إن كان أسوداً ، ولاختلاف لونه إن كان أبقعاً ، ولأنه غريب يقطع إليهم ، ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم ، إلا عند

مباينتهم لمساكنهم ، ومزايلتهم لدورهم ؛ ولأنه ليس شيء من الطير أشد على ذوات الدبر من إبلهم من الغربان ، ولأنه حديد البصر فقالوا عند خوفهم من عينه الأعور . كما قالوا غراب لاغترابه وغربته وغراب البين؛ لأنه عند بينونتهم يوجد في دورهم)) (21)فيكاد يتفق العرب على كراهتهم للغربان واستشعار الشر بوجودها ولا يخفى ما لهذه الكراهة من ترابط مع كراهتهم للظلام والسواد وما يصدر عنهما من شرور .فيقول زهير بن أبي سلمى (22) :

فعدّ عمّا ترى إذ فات مطلبه   أمسى بذاك غراب البين قد نعقا

يسيطر إيمان الشاعر بالغيبيات والشر المتوقع حدوثه على هذا المشهد الشعري، فالفقد والفراق يجعل الإنسان هش في شعوره تجاه إي مثير خارجي قد يطرأ على محيطه ، فيتطرف في الحزن والفرح والغضب فيزداد كل شيء حد وشيء من العنف ، حتى في معتقداته وعلاقته بآلهته ،فكيف به و هو على هذه الحال أن يسمع أكثر الأصوات التي تثير فيه مختلف المشاعر السلبية التي يستقبلها بحدة أيضا نظرا لحالة الفراق التي يعيشها ، ممّا يجعله يفقد أي أمل بالوصال بعد ما قدمت له الطبيعة هذا النداء بصوت الغراب ،إن وقت الحب قد أنتهى ولا عودة له .والعرب كانت تتطير من طيور معينة : ((الغراب وطيور الليل ، وهي البومة ، والصدى ، والهامة ، والضوع ، و الوطواط ، والخفاش ، وغراب الليل، و قاعدتهم في الطيرة ، أنهم يشتقون من أسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون ... فاشتق الاغتراب من الغرب ، والبينونة من البان))(23). ولك أن تلحظ أن أغلب هذه الطيور تشترك بصفات معينة ينفر منها الإنسان عموما ، من سواد ريشها كله أو بعضه و صوتها المخيف والموحش كل ذلك جعل وجودها نذير شر .

وفي سياق مختلف ما قاله عبيد بن الأبرص [24]:

إِذا ما باصَ لاحَ بِصَفحَتَيهِ وَبَيَّضَ في المَكَرِّ وَفي المَحاصِ

تُلاوِصُ في المَداصِ مُلاوِصاتٌ لَهُ مَلصى دَواجِنَ بِالمِلاصِ

....

وَباصَ وَلاصَ مِن مَلَصٍ مَلاصٍ وَحوتُ البَحرِ أَسوَدُ أَو مِلاصِ

كَلَونِ الماءِ أَسوَدُ ذو قُشورٍ نُسِجنَ تَلاحُمَالسَردِ الدِلاصِ

يرسم الشاعر مشهدا من الفخر والحديث عن الذات، يتخلله إفصاح عن خوف الإنسان من الحوت بوصفه حيوان مفترس ضخم ربما لم يسبق للعرب أن تعاملوا معه لذا لم يكونوا له صورة أسطورية في مخيلتهم فلم نعرف انطباعهم عنه و شعورهم المرتبط بوجوده مثل ما هم مع الغراب ، إلا أن الشاعر أستعان بالنور والظلام و الوجود اللوني من السواد والبياض كي ينقل لنا الشعور بالخوف واستشعار الشر القادم ، فقد جعل الشاعر من الحوت معادلا موضوعيا لوجوده الشخصي ، فرأى فيه من القوة والبطش والصلابة ما يجعله قادرا على رسم صورة مهولة لنفسه بوصفه شاعرا ، فهو حينما يتحرك في الماء ويسرع في حركته يمينا وشمالا بجسمه الضخم وكتلته الثقيلة يحدث موجا أبيضا، يجعل الخوف يدب في قلوب من ركب البحر وكأنه فارس يقاتل في المعركة فتلتمع لامة حربه وسيفه للناظرين من بعيد فيخلق المشهد شيء من الرهبة والجلال في النفس ، فهو جميل ومخيف في الوقت نفسه ،فلا يستطيع أحد هزيمته أو مجاراته ، ومثله الشاعر في شعره عصي المجاراة ،كما أن حركة هذا المخلوق الضخم التي تجعل الماء يرتبك بساكنيه حتى وهم بعيدون عنه ولا تقع أبصارهم

عليه ، فلا يعلمون إلى أي مكان يهربون منه خشية أن يطبق عليهم بفكه فلا يبقى لهم أي أثر ، هذه السيطرة المستمرة والسلطة المحكمة على القلوب و الرقاب ، ترسم للحوت صوة أشبه بصورة إله إذ يتمتع بالصفات ذاتها ، لكنه إله مخيف إله للموت والشر والدمار صورة لآلهة الظلام يعزز هذا الشعور سواد لونه وما يحمله هذا اللون من مرجعيات دينية واجتماعية سلبية حملها الإنسان في مخيلته ودار بها من جيل إلى جيل .

وفي سياق مختلف يقول الأسود بن يعفر النهشلي * (25):

هَل بالمنازِل إن كلّمتها خَرسُ أم ما بيانُ أثاف بينَها قَبَسُ

كالكُحل أسودَ لأياً ما تكلمنا مما عفاه سحابُ الصَيّف الرجسُ

شكل الكحل رمزا جماليا بارزا في المخيلة الاجتماعية للعرب ، بلونه الأسود الجالب للبهجة والانشراح برؤيته يزين عيون الرجال والنساء فيزيدها جلالاً ومهابة وحسن ، ومن ثم فإن المشاعر التي يثيرها وجوده لدى المتلقي هي مشاعر إيجابية تنهل من الخير كل مناهله ،إلا أن الشاعر العربي لم يترك رمزا إلا وطوعه بين يدي موقفه النفسي فيقلب دلالته ويغيرها وينقلها من الخير إلى الشر ، حتى يستطيع أن يثير متلقيه لاستقبال الشعور الذي يحاول بثه ، فالكحل في قول الشاعر غادر ساحة الجمال التي طالما كانت بيته ومستقرة ، ليحتفظ بالدلالة السلبية للون الأسود فقط ، إذ إنّ الشاعر أستعمله بوصفه طرفا معادلا في صورته الشعرية التي تمثل مشهد الخراب الذي وقف عليه الشاعر جراء هجرة حبيبته و انتقالها من محلها الذي ألفته نفسه فلم تخلف ورائها إلا موضع طبخ الطعام وبعض الأواني وبقايا نار ، وإنما يصر الشعراء على هذا الوجود لبقايا النار كي يثبتوا من خلالها على الزمن الفاصل بين رحيل الحبيبة و وصول الشاعر للمكان إذ إنّه لم يتأخر إلا بوقت

قصير ممّا يضاعف شعوره بالعذاب والألم كونه لم يستطع إدراكها قبل رحيلها ، وأن ما منعه عنها ما هو إلا وقت يسير كما أن المشهد الذي وقف عليه الشاعر يكاد يكون كله أخرساً إذ لا صوت لحيوان أو لإنسان كون الحبيبة قد هجرته ،وهذا الخرس أنما يعزز القول السابق بقصر الوقت الفاصل بين مغادرة الحبيبة وحضور الشاعر، إذ إن المكان ما يزال يحتفظ بروح الإنسان فيه ما يوحي بأنه مسكون فلم تقربه الحيوانات ، كما لا يخفى على المتلقي ما تحمله النار من دلالة على الحياة و الخير، وربما مثلت بصورتها هذه شرا للشاعر فمشهد النار الفاترة والجمرة التي تختفي تحت الرماد أنما يشير إلى انطفاء شعلة الحب بينهما وخمود العاطفة وذوبانها وتلاشيها في العدم فتأخذها الريح كما تأخذ الرماد المتطاير، ومن ثم فالشاعر رأى في سواد موضع الطبخ لكثرة اشعال النار أن هذا السواد قد ذكره بسواد الكحل فشبه به وفرق واسع ما بين الاثنين فهذا سواد خير وسعادة أذ لا تكتحل العرب وهي في حزن وتعاسة ، وذاك سواد شر وحزن وفراق حبيب ، لكن الشاعر قد جمع بين السوادين في صورة واحدة . كما أن هذا السواد لا يخلو من إيحاء ديني يشير إلى عبادة النار وتقديسها من خلال البكاء على الرماد وما تبقى من آثارها ويعزز ذلك قول :((أنور أبو سويلم : إنهم يبكون النار التي أطفئت و أطفئ معها الحب الملتهب ، و الوجد المتأجج ، ولم يبق منهما إلا رماد تذروه الرياح .... وربما كان الطلل يرتبط بشعائر قديمة اندثرت ، كان يقدم الشاعر فيها تراتيله على أعتاب النار المقدسة التي تحولت إلى رماد وأثاف ... إذ في وصف الطلل ترى الشعراء يقفون بخضوع ورهبة ... إلى درجة التقديس)) [26]. ولعل مشاهد الطلل أكثر مشاهد الشعر الجاهلي عرضه للتفسيرات والتحليلات المختلفة نظرا لأجوائها الخاصة وكثرة الرموز التي تحتويها التي تفتح أمام المتلقي أبواباً واسعة للتحليل والتأويل .

خاتمة :

يشير الشاعر الجاهلي إلى دلالات متنوعة قد حملتها ثنائية النور والظلام التي غذت النص من خلاها منها :استمرارية الحياة وحركتها الدائمة التي لا تنقطع ولا تتغير، فلا تبلى الكواكب ولا تمل من الاشراق كل يوم فهي خالدة متجددة ولا ينفك الليل عن ظلامه كل يوم هو في ظلام جديد ، تمثل صورة للقوة والثبات التي تقابل ضعف الإنسان وتبدل أحواله، كما يتأمل الشاعر أيضا حركة النجوم وتبدلها مع تبدل الأيام ويرى أنها تجلب السعد للإنسان مرة فيستبشر لرؤيتها بخير يصيبه أو منفعة يحصل عليها أو تجارة يوفق بها ، ومرة ثانية تجلب له النحس فيتخوف من طلوعها أن يفتح عليه بابا للشر وسوء الطالع ، فيكون في هذا الوقت أكثر حذرا من نوائب الدهر أن تمد يدها إليه فتصبغه بشرها فتأخذ من صحته بمرض أو أحبابه وأهله بموت أو فراق أو ماله بسرقه أو غزو.

نتائج البحث :

1- أن حياة الإنسان داخل مجتمعات تتكون من طبقات مختلفة ومتباينة من حيث الغنى والفقر ، وعدم ثبات موارد الغذاء وتذبذبها ، جعله يختبر مشاعر الظلم والعدل والخير والشر ،حتى مع عدم وجود دين ترجع إليه هذه الجماعات ،فهناك دائما الأعراف والتقاليد التي تنظم التعامل بين الأفراد في مجتمع ما ، والعرب وفقا لحياتهم التي تسيطر عليها الغزوات ولغة السيف والسلب والاغارة التي تصل حد تشمل معها حتى الإنسان نفسه فيسلب كما تسلب الإبل والخيل وما سواها فيعد غنيمة يتقاسمها الغانمون فيما بينهم، كل هذا الذي يعايشه العربي لا شك أنه جعل للشر والخير وجودا راسخا في النفوس والأذهان وقد ترجم الشاعر الجاهلي هذه المفاهيم عبر ثنائية النور والظلام .

2- شكل المدح ركناً مهما من أركان القصيدة العربية قديما ، إذ يعد نوعا من الامتنان والعرفان لجميل يصنعه لهم أحد أستحق منهم المدح ، أو لخدمة ومساعدة أو ينالونها من

زعيم أو ملك ، وقد أتخذ المدح أشكالا متنوعة باختلاف الممدوح ومكانته الاجتماعية والعافية في نفس الشاعر ، فيتخذ المدح شكل الغزل إن كان الشاعر يمتدح محبوبه، ويتخذ صورة الرثاء أن كان الشاعر يمتدح ميتا قد ثكل به ، وقياسا لذلك لم تتخلف التسبيح والأدعية للمعبودات في ظل ثنائية النور والظلام عن المدح في شيء إلا كونها توجه إلى معبود ومن ثم تكون أكثر كمالا وقداسة نظرا لكمال تلك الآلهة وقداستها لدى العرب.

3- قدس العرب اللون الأسود بسبب مرجعية دينية على الرغم من تشاؤم البشرية منه إذ كان تمثلا لقوى الشر إلا أن الحجر الأسود قد مثل تضادا لونيا نشأ عن صراع بين خير الإنسان وشره ،إذ كان كل لون منهما رمزا وتمثلا لخير مرة وللشر مرة ، إذ تروي العرب قصة هذا الحجر على أنه قطعة تذكارية مقدسة ، نزل بها آدم من الجنة .

الهوامش:

(1) مفهوم الضوء والظلام في العرض المسرحي، جلال جميل محمود: 183.

(2) شعر طيء واخبارها في الجاهلية والإسلام ، وفاء فهمي السنديوني: 386.

(*) حنظلة الطائي : رجل من طيء يعرف بابن أبي عفراء بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك . وكان من شعراء الجاهلية .وقد تعبد في الجاهلية وتفكر في أمر الآخرة وتنصر وفارق بلاد قومه ونزل الجزيرة مع النصارى حتى فقه دينهم وبلغ نهايته وأبتاع ماله وبنى ديرا بالجزيرة وترهب فيه حتى مات .أنظر ، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، أبو عبيد البكري : 576/2 .

(3) دور الإضاءة في إبراز القيم الوظيفية والجمالية للفراغ الداخلي ، فيصل خليل أبراهيم الغرباوي : 46.

(6) الديوان :112 . غدية : أول النهار . أبن مر و سنبس : صائدان معروفان بالصيد وهما من طيء . المغرثة : المجوعة . العضرس : نبات من البقول زهره أحمر . الرغام : التراب . الصمد : ما صلب من الأرض . جذوة : شعلة . أيقن : أدرك . يومه : حينه و موته . النسا : عرق في الساق . شبرق : مزق . المقدس : الراهب . غورن : دخان . كقرم الهجان : كالجمل . الضروب . الغادر : الذي ترك الضراب .

(7) اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات نموذجا ، طه غالب : 49.

(8) قس بن ساعدة الأيادي حياته . خطبه . شعره ، د. أحمد الربيعي : 407 الورس : الزعفران.

(10) الديوان : 47-48. كددوا : بالغوا في السجود . السموم : الرياح الحارة . سودوا : جعلوا السيادة للإنسان . نالو : نقصر. الخبال : الفساد .

(11) الديوان : 34 . الأبية : الإبل التي تعاف الماء . الخمس : من أظماء الإبل .

(12) الديوان: 34 . ذو حسم : واد في نجد . لا تحوري : لا ترجعي . الذنائب : موضع بنجد . العوذ :واحدتها عائذ . الربع : ما نتج في الربيع .

(13) الديوان : 137.

(14) ديوان الهذليين، :80/2. سحاليل : عظيمة البطن .

(15) البيان والتبيين ، الجاحظ : 8/3 . الحلقة : حلقة القوم ، جماعتهم . انعفر: ظل ملقى في العفر متتربا . النبل : السهام . و الدوقة : واحدة الدرق ، وهو ضرب من الترسة يتخذ من الجلود وغرة كل شيء : أوله و وجهه .

(16) إيمان العرب في الشعر الجاهلي، مالك محمد جمال بني عطا :67.

(18) نهاية الإرب في فنون الأدب ، النويري :103. الجمة : الجماعة يمشون في الدم وفي الصلح.

(19) المصدر نفسه : 103.

(20) الديوان :141. أبلج : واضح مشرق الوجه . الباهر : الذي بهر النجوم فيقطع ضوءها . الغبن : النقص .

(21) القضاء عند العرب في الجاهلية و موقف الإسلام منه ،صالح حسن الشمري ، جنان أحمد عبد العزيز : 32 .

* النطف :وهو من بني سليط بن سليط بن الحارث بن يربوع ، النطف الخيبري ، وأسمه حطان ، وإنما سمي النطف لأنه كان فقيرا ، وكان يحمل الماء على ظهره فيقطر الماء فيقول : نطفت القربة وقربتي نطفة . أنظر : أنساب الأشراف ، البلاذري : 205/12.

(22) المصدر نفسه : 205/12 .و كان باذام عامل كسرى باليمن بعث إليه بعير عظيمة تحمل الثياب والعنبر ، وكان فيها خرجان فيهما مناطق ذهب و جوهر نفيس ، فلما كانت العير بنطاع ، ويقال بحمض تداعى إليها بنو تميم فدعا صعصعة بن ناجية بن عقال قومه وشجعهم على أخذها ، فشدوا على اللطيمة فانتهبوها بعد قتال لمن عليها ، وذلك في يوم حمض و وقع في يد النطف خرج فيه جوهر وعنبر، فضربت العرب به المثل فقالوا : أصاب غنم النطف وقد أصاب خرج النطف ، ولم يزل النطف يومئذ يعطي منذ صار إليه حتى غابت الشمس فقال إبنه فيه هذا البيت .

(23) الديوان : 38 . البوارح : الطيور التي تجيء عن يمينك فتوليك مياسرها والعرب تتطير بالبارح و تتفائل بالسائح . الغداف الأسود : هو الغراب الأسود .

(24) لسان العرب ، ابن منظور: 411/2 ، مادة البراح .

(25) الحيوان ،الجاحظ : 3/ 438.

(27) المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي :6/ 791 .

(28) الديوان : 74 . المحاص : الرجوع أو المفر ، ضد المكر . باص : هرب . لاص : حاد . الملص : الزلق . ملاص : تخلص وانفلات .السرد : الدرع من الحلق . الدلاص اللين اللماع .

* الأسود بن يعفر : هو أبن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم الأسود بن يعفر ابن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، قال السيوطي : وجعله محمد بن سلام في الطبقة الثانية مع خداش ابن زهير و المخبل السعدي والنمر بن تولب وكنيته أبو

الجراح .وكان ممن يهجو قومه . وترجمه الآمدي في المؤتلف و المختلف فيمن لقب بالأعشى ، فقال : ومنهم أعشى بني نهشل وهو الاسود بن يعفر بن الاسود بن حارثة ابن جندل بن نهشل بدارم الشاعر المشهور .... وهو شاعر مقدم فصيح من شعراء الجاهلية . ليس بمكثر وله قصيدة مشهورة . أنظر ، خزانة الأدب :405/1-406.

(29) الديوان : 38.

(30) المعاني الدينية في شعر شعراء ما قبل الإسلام ، خالد علي سالم العدوان : 136 .

(33) شرح الديوان : 195 . أسنى : أشد سناء و نورا .

المصادر والمراجع :

أنساب الأشراف الجزء الثاني عشر ، احمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق / الدكتور سهيل زكار – الدكتور رياض زركلي ، دار الفكر ، ط1 / 1996 .

البيان والتبيين ، الجاحظ /3 ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط7 / 1998 .

الحيوان ، الجاحظ الجزء الثالث ، تحقيق /عبد السلام هارون ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر، ط2/ 1965 .

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب الجزء العاشر ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط4/ 2000 .

ديوان الأسود بن يعفر ، الدكتور نوري حمودي القيسي ، مديرية الثقافة العامة وزارة الثقافة والأعلام 1970، سلسلة كتب التراث 15 .

ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، تحقيق محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميزات .

ديوان امرؤ القيس ، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ط2 / 2004 .

ديوان امية بن ابي الصلت ، الدكتور سميع جميل الجبيلي ، دار الصادرة بيروت ، ط1 / 1998.

ديوان حاتم الطائي ، احمد رشاد ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان ، ط1986/1 .

ديوان عبيد بن الأبرص ، اشرف احمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، ط1 / 1994

ديوان المهلهل ، انطوان محسن القوال، دار الجيل بيروت ، ط1 /1995

ديوان النابغة الذبياني ، بطرس البستاني ، دار صادر للطباعة والنشر –بيروت 1963 .

ديوان الهذليين القسم الثاني ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ،ط3 /2003.

شرح شعر زهير بن ابي سلمى ، الدتور فخر الدين قباوة ، مكتبة هارون الرشيد للتوزيع سوريا – دمشق ، ط3 / 2008.

شعر طيء وأخبارها في الجاهلية والإسلام ، دز وفاء فهمي السنديوني ، دار العلوم 1983

قس بن ساعدة الأيادي حياته خطبه شعره ، دكتور احمد الربيعي ، مطبعة النعمان – بغداد 1974 .

القضاء عند العرب في الجاهلية وموقف الإسلام منه ، أ. د. صالح حسن عبد الشمري – م. د . جنان أحمد عبد العزيز السامرائي ، الأيام للنشر والتوزيع – عمان الأردن ، ط1/ 2017

لسان العرب الجزء الثاني ، أبن منظور ، مادة البراح

معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، ابي عبيد البكري ، تحقيق / مصطفى السقا ، عالم الكتب – بيروت ،ط3/ 1403 .

المفصل في تأريخ العرب ، الدكتور جواد علي ، ساعدت جامعة بغداد على نشره الجزء السادس ، ط2/ 1993 .

مفهوم الضوء والظلام في العرض المسرحي ، جلال جميل محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، 2002

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، الاب لويس شيخو اليسوعي ، دار المشرق ش م م بيروت – لبنان، ط2 / 1989

نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب الجزء الأول ، شهاب الدين عبد الوهاب النويري ، تحقيق الدكتور /مفيد قميحة .

الرسائل والاطاريح:

أيمان العرب في الشعر الجاهلي ، مالك محمد جمال بني عطا ، جامعة مؤتة 2005 ، رسالة ماجستير منشورة.

دور الإضاءة الصناعية في إبراز القيم الوظيفية و الجمالية للفراغ الداخلي ، فيصل خليل ابراهيم الغرباوي ، الجامعة الاسلامية بغزة كليلة الهندسة ماجستير الهندسة المعمارية ، يناير / 2019 ، رسالة ماجستير منشورة .

اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات أنموذجا ، أمل محمود عبد القادر ابو عون ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس – فلسطين 2003 ، رسالة ماجستير منشورة .

المعاني الدينية في شعر شعراء ما قبل الإسلام ، خالد علي سالم العدوان ، جامعة مؤتة 2007 ، رسالة ماجستير منشورة .